

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٢)

من قوله تعالى "أم حسبت أن أصحاب الكهف" الآية ٩ إلى قوله تعالى "ويهيئ لكم من أمركم مرفقا" الآية ١٦
الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: **{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرْبَنَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ نِعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف (٩-١٢)].

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: **{أَمْ حَسِبْتَ}** [سورة الكهف (٩)] يعني: يا محمد **{أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}** [سورة الكهف (٩)] أي: ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال ابن جريج عن مجاهد: **{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}** [سورة الكهف (٩)] يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: **{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}** [سورة الكهف (٩)] يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون.

وأما الرقيم، فقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو واد قريب من أيلة.

وكذا قال عطية العوفي وقتادة.

وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي.

وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم.

ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: **{وَالرَّقِيمِ}** [سورة الكهف (٩)] قال: يزعم كعب أنها القرية.

وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف.

وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقوله: **{إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}** [سورة الكهف(١٠)] يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم؛ لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبُوا مِنْهُمْ، فَلَجُّوا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا حِينَ دَخَلُوا -سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم-: **{رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً}** [سورة الكهف(١٠)] أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا، **{وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}** [سورة الكهف(١٠)] أي: وقدّر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: **{(وَمَا قُضِيَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا)}**(١).

وقوله: **{فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا}** [سورة الكهف(١١)] أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فاناموا سنين كثيرة **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ}** [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ}** [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفين فيهم **{أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا}** [سورة الكهف(١٢)] قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمْدِ (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فقله -تبارك وتعالى-: **{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ}** [سورة الكهف(٩)] (أم) هذه هي التي يفسرونها بالمنقطعة، وقد مر نظائرها، (أم) المنقطعة هذه مقدره بـ(بل) والهمزة، أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، وعجباً هذه منصوبة على الحال، أو أنها خبر (كان). يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

أي ليس خبرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، يعني أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة بهذا النوم الطويل إلا أن آياتنا كلها عجيبة، وفي هذا الآيات ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف ومن هذا النوم، وذلك أن خلق هذه السموات والأرض وما يوجد فيهما من المخلوقات، وما وجدت عليه من الدقة العجيبة، وهذا الخلق الهائل، وهذا النظام الدقيق الذي تسير فيه هذه الأفلاك، وما إلى ذلك، كل ذلك من الأمور العظيمة التي هي أعظم من نوم وقع لهؤلاء الفتية في هذه المدة الطويلة.

١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٢٢ - ٦٣٩) بلفظ: ((وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رشداً)) وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٢) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (٧٤٨ / ٢).

٢ - البيت للناطقة يخاطب النعمان، وقبله:

فمن عصاك فعاقبه معاقبة *** تنتهي الظلوم ولا تقعد على ضمدٍ

إلا لمثلك أو من أنت سابقه *** سبق الجواد إذا استولى على الأمد

انظر: المعاني الكبير في أبيات المعاني (٨٥٣ / ٢) والمصون في الأدب (ص: ١١٧) وغيرهما.

بل إن خلقهم -خلق الإنسان- أعجب من هذا، أعجب من هذه النومة التي ضربها الله -عز وجل- عليهم، هذا الإنسان وما فيه من قدرة على عقل الأشياء وفهمها، وما يتصف به من السمع والبصر، وما يختزنه من ألوان المشاعر، وما فيه من الأعضاء والأبعاض التي تعمل بنظام في غاية التعقيد والدقة أعجب من نوم هؤلاء هذه المدة الطويلة، لكن الإنسان لا يدرك كثيراً من هذه الأشياء تارة، وما يتصل بها من وظائف وعمل، أو أنه ربما ألف الشيء حتى صار ذلك لا يحرك شيئاً في كوامنه وفي نفسه، طلوع الشمس من مشرقها، وغروبها من المغرب، وظهور النجوم في الليل، والقمر كذلك، كل هذه أشياء عجيبة، ولكن الإلف هو الذي يجعل الإنسان بهذه المثابة، لو أن أحداً من الناس حُبس منذ أن ولد لم ير شمساً ولا قمراً بمكان، في نفق من الأرض، أو في قبو أو نحو ذلك، وما رأى شيئاً إطلاقاً، ثم بعد ذلك لما أدرك أُخرج فإنه سيبقى مندهشاً مذهولاً حينما يشاهد هذه الشمس وهي تشرق، ثم لم يزل يشاهدها ويرقبها في ارتفاعها إلى أن تغرب، فإذا ظهرت النجوم وأقبل الظلام فإن عجبه لا ينقضي بحال من الأحوال، فينظر إلى هذه السماء وما فيها من العجائب والغرائب، والقمر وما إلى ذلك مما يؤثر فيه غاية التأثير، فإذا رأى الجبال أو رأى البحر فإن ذلك أيضاً يكون محرّكاً للتفكير والاعتبار، وتعظيم الله -عز وجل- في نفسه، لكن حينما يألف الإنسان الشيء لا يؤثر ذلك فيه.

فالشاهد أن آيات الله كلها عجيبة، وهذا وإن كان من آيات الله إلا أن آياته كلها عجب، وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير هذا القدر من الآية: **{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ}** [سورة الكهف(٩)] وهو الذي فسرها به أيضاً ابن جرير -رحمه الله- والشنقيطي من المعاصرين.

وقوله: "وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية" هذا تقريب للمعنى وإلا فإن الكهف يقال للغار الواسع، الغار إذا كان متسعاً فإنه يقال له: كهف، وإذا كان ضيقاً يقال له: غار، هذا الفرق بين الكهف والغار.

فعلى كل حال الكهف معروف، فهو غار متسع، ولكن أين يقع هذا الكهف؟ نحن لم نقف على هذا ولا نعلم، ولا يعنيننا ذلك، ولا نستفيد منه، وما اشتغل به كثيرون قديماً وحديثاً من محاولة تحديد هذا المكان، وعمل قياسات لأشعة الشمس لبعض الأماكن، وأن ذلك ينطبق على المحل المعين، كل هذا مما لا فائدة فيه، إنما العبرة في ما تضمنه هذا الخبر من بيان قدرة الله -عز وجل-، وكذلك أيضاً ما يتصل بقضية الإيمان من وجوه متعددة، فالعبرة بهذا، وهو الذي ينبغي أن يكون محل العناية لا مكان الكهف، أو عدد هؤلاء الفتية، أو لون الكلب، واسم الكلب، وما أشبه ذلك.

يقول: "وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلة، وبعضهم يقول: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم" الذي يظهر أن الذي قال بهذا ربما يقصد العمران أو القرية التي كانوا فيها، وهذا قول لبعض السلف، وربما يقصد بذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: **{ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبَّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ}** [سورة الكهف(٢١)] وهذا البنيان ما هو وما طبيعته؟ الله تعالى أعلم، ولكن من السلف من قال: إن المقصود بالرقيم هو شيء كتب فيه كتابة تتعلق بهم، وبعضهم يقول: كُتِبَ فيه أسماءهم، وبعضهم

يقول: كتب فيه خبرهم وقصتهم، وهذا المعنى رجحه ابن جرير وكذلك الشنقيطي، باعتبار الرجوع إلى أصل المادة.

أما الروايات الإسرائيلية فتقول: إن هذا اسم كلب لهؤلاء، أو أنه اسم القرية، أو اسم الوادي أو نحو ذلك، وكل هذا لا دليل عليه، ولا يعتمد عليه، ولم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في ذلك يمكن أن يعول عليه، فيرجع بعد ذلك إلى أصل المعنى اللغوي للرقيم، فالرقم هو الكتابة، ((إلا رقماً في ثوب))^(٣) فهذا أصل الرقم.

يقول: عن ابن عباس في قوله: {الرقيم}: كان يزعم كعب -يعني كعب الأحبار- أنها القرية، ويقصد القرية التي ليس فيها الكهف، وإنما القرية التي خرجوا منها، قرية هؤلاء الفتية، وبعضهم يقول: الجبل الذي فيه الكهف، ومن أهل العلم من يستبعد هذا.

وبعضهم يقول: لوح من حجارة أو رصاص كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف وأسماءهم.

ولاحظوا هذه الأقوال المختلفة، فمن قائل: إنه اسم الكلب، ومن قائل: إنه اسم القرية أو اسم الجبل أو لوح، وكل هذا في غاية الاختلاف والتباين، والسبب أن الاعتماد فيه على الروايات الإسرائيلية، وهذه الروايات الإسرائيلية مليئة بالتحريف والكذب، والله -عز وجل- يقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [سورة الإسراء(٣٦)] كيف يكون الرقيم؟ قائل يقول: إنه اسم الكلب، وقائل يقول: إنه اسم الوادي أو أنه لوح كتب فيه كذا وكذا، هذه الأقوال لا يمكن أن تتفق، ولا يمكن أن يجمع بينها ويقال: والله الرقيم يصدق على ذلك كله، وأن الكلب اسمه الرقيم، والوادي اسمه الرقيم والجبل كذلك، هذا ما يمكن، وهذا كثير فيما وجد من المرويات الإسرائيلية، والسبب في ذلك أنها محرفة.

يقول: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١٠-١١)].

{فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ} [سورة الكهف(١١)] التعبير بالضرب يشعر أو يدل على شدة اللصوق والعلوق، ووقوع ذلك عليهم، وعلى تمكنه منهم، كما قال الله -عز وجل-: {ضْرِبْتُ عَلَيْهِمُ الدُّنَّةَ} [سورة آل عمران(١١٢)].

{فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] قال: أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، ضرب عليهم النوم، وهذا النوم تمكن منهم غاية التمكن، حتى حال بينهم وبين سماع الأصوات {فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] ما عادوا يسمعون شيئاً، صاروا مستغرقين في نومهم حتى صاروا لا يسمعون {فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] والسنين هنا منصوبة على الظرفية، وذكر العدد {سِنِينَ عَدَدًا} ليدل على الكثرة، وذلك أن القليل لا يحتاج إلى عد، وإنما الذي يحتاج إلى عد وحساب هو الكثير من الأشياء.

٣ - أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة (٧/ ١٦٨-١٥) ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة (٣/ ١٦٦٥-٢١٠٦).

والله - عز وجل - قد بيّن هذه المدة: أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، وازدادوا تسع سنين، وهذا لا يكون إلا بمعجزة، وأمر خارق للعادة، قال: أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فاناموا سنين كثيرة، والمقصود سدنا آذانهم عن سماع الأصوات بالنوم الغالب الذي يحول بينهم وبين السماع.

يقول: **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ}** [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم... إلى آخره، ولهذا قال: **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ}** [سورة الكهف(١٢)] المختلفين فيهم **{أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف(١٢)].

{بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ} [سورة الكهف(١٢)] الله - عز وجل - كما هو معلوم - يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، **{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ بَيْنُوكُمْ الْفِتْنَةَ}** [سورة التوبة(٤٧)] ويقول عن المنافقين: **{لَنَن أُرْجُوا لَأ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنَن قُوتِلُوا لَأ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنَن نَّصُرُوهُمْ لَيُؤَلْنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَأ يَنْصُرُونَ}** [سورة الحشر(١٢)] هذا فيه علم ما لم يكن أنه لا يكون، وأنه لو كان كيف يكون، هم وعدوهم بأنكم إن أخرجتم لنخرجن معكم، وأنكم إن قوتلتم لننصرنكم، فالله - عز وجل - أخبرهم أنهم كذبة في هذا القول، وأنهم إن أخرجوا لا يخرجون معهم، وأنهم إن قوتلوا لا يقاتلون معهم، ولا ينصرونهم، وأنهم إن نصروهم - مع أنهم ما نصروهم - ليولن الأدبار ثم لا ينصرون.

فإنه عالم بكل الأشياء، ويقول عن الكفار الذين يطلبون الرجعة في الآخرة: **{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}** [سورة الأنعام(٢٨)] فإنه لا تخفى عليه خافية، وقوله - تبارك وتعالى - هنا: **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف(١٢)] ما المقصود بهذا العلم ؟ **{بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ}** أي: بعثناهم لنعلم علماً يكشف للناس حقيقة هؤلاء، أو المدة التي جلسوها في الكهف **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف(١٢)] هذا علم الظهور والانكشاف وإلا فإنه - عز وجل - يعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، لا يخفى عليه من هذا شيء، ولكن المقصود هنا العلم الذي يحصل به الظهور والانكشاف، هذا المقصود: يعني للناس، وإلا فإنه يعلم، كما قال الله - عز وجل -: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ}** [سورة التوبة(١٦)] **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ}** [سورة آل عمران(١٤٢)] والمقصود بالعلم علم الوقوع، وليس ذلك يعني أن الله - عز وجل - لا يعلم الصابر من غير الصابر، الله يعلم ذلك، ولكن الشيء والأمر الذي يحصل به الجزاء والحساب هو الوقوع والحصول، فهذا المقصود بمثل هذه الآيات، **{حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ}** [سورة محمد(٣١)] بمعنى العلم الذي يترتب عليه الجزاء والحساب وهو وقوع ذلك الشيء وحصوله، وتحققه في الواقع، فالله - عز وجل - لا يحاسب الناس بمقتضى العلم بما علمه منهم، وإلا فإنه قبل أن يخلقهم عالم بما يكون منهم، ولكنه لا يحاسبهم بذلك، وإنما يحاسبهم بما جرى وحصل ووقع منهم.

فمثل هذه المواضع ينبغي أن يتبين طالب العلم المعنى المراد منها، ولا يلتبس عليه ذلك **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ}** [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفين فيهم، يبقى النظر في هذين الحزبين من المقصود بهم ؟ بعضهم يقول: أهل الإيمان وأهل الكفر، وبعضهم يقول: هما فريقان من أهل الإيمان اختلفوا فيهم، من أهل زمانهم المعاصرين لهم، وبعضهم يقول: إن هذين الحزبين المشار إليهما في الآية هم من أهل الكهف؛ لأن هؤلاء

اختلفوا، فمنهم من قال: **{لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}** [سورة الكهف(١٩)] وبعضهم قال: **{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}** [سورة الكهف(١٩)] فما اتفقوا على مدة متحدة معينة في بقائهم هذا.

وهذا القول لعله أقرب هذه الأقوال، وعلى كل حال بعضهم يقول: بين أصحاب الكهف وبين من فروا منهم **{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف(١٢)] قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية، وإذا نظرت تجد أن أحد هذين القولين مستلزم للآخر، إذا عرفوا الغاية عرفوا المدة، والزمَن الذي مكثوا فيه في هذا الكهف.

قوله تعالى: **{لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}** [سورة الكهف(١٢)] (أحصى) هذه تحتل أن تكون أفعل تفضيل، يعني أكثر إحصاءً، ومن أهل العلم من يمنع في مثل هذا أن يكون للتفضيل، وبعضهم يقول: أحصى فعل ماضٍ **{لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ}** [سورة الكهف(١٢)] المدة التي بقوا فيها في هذا الكهف.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدِّنَاَهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هُوَ لَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} [سورة الكهف(١٣-١٦)].

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- شباباً.

وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني: الحلق، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم. فـ**{آمَنُوا بِرَبِّهِمْ}** [سورة الكهف(١٣)] أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

{وَرَدِّنَاَهُمْ هُدًى} [سورة الكهف(١٣)] استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: **{وَرَدِّنَاَهُمْ هُدًى}** [سورة الكهف(١٣)] كما قال: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}** [سورة محمد(١٧)] وقال: **{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** [سورة التوبة(١٢٤)] وقال: **{لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}** [سورة الفتح(٤)] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم -عليه السلام-، والله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم؛ لمباينتهم لهم.

وقد تقدم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء،

وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

سبق أن الرواية لا تصح في هذا.

وقوله: **{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [سورة الكهف] يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: "دقيانوس" وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.

هذا مأخوذ من الروايات الإسرائيلية أيضاً، فلا يعتمد عليه، وبعضهم يذكر أيضاً أخباراً أخرى مشابهة لهذا. يقول: إن هؤلاء قاموا فتكلموا بذلك لما اجتمعوا، وعرض بعضهم على بعض ما وقع في نفسه، مما يعاب من دين قومه، فلما اتفقوا في هذا النظر وهذه النتيجة التي توصلوا إليها، وهدهم الله - عز وجل - لها قاموا جميعاً، فقالوا: **{رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [سورة الكهف(١٤)]، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قاموا فقالوا ذلك بين يدي الملك، وأن الملك لما علم بهم دعاهم قبل ذهابهم إلى الكهف، ثم أمهلهم من أجل أن يرجعوا، فيقال: إنهم قاموا بين يديه، وقالوا: **{رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [سورة الكهف(١٤)] لما سألهما عما بلغه عنهما، فأقروا بذلك، وأعلنوه، فأمهلهم مدة من أجل أن يرجعوا أنفسهم في هذا، فلجئوا إلى الكهف، وحصل ما حصل، هكذا قال بعضهم، وكل هذا مما أخذ عن بني إسرائيل.

وتفسير **{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا}** [سورة الكهف(١٤)] بمثل هذا ليس بلازم، فذكر القيام لا يشترط فيه الوقوف، وإنما قد يكون المقصود به النهوض بأمر من الأمور **{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا}** [سورة الكهف(١٤)] فإن التعبير بالقيام لا يستلزم الوقوف، وكذلك التعبير بالقول لربما يعبر بالقول عن الفعل، وبالفعل عن القول، تقول: قال بيده هكذا، يعني حركها، تقول: قال بيده، فهذا فعل، وكذلك {إِذْ قَامُوا} فالقيام فعل **{إِذْ قَامُوا فَقَالُوا}** [سورة الكهف(١٤)] فليس المقصود القيام على القدمين، وإنما أنهم انبروا لهذا، ونهضوا به، فاعتقادهم لذلك، وإقرارهم بهذه القضية ونحو ذلك هو قيام منهم، تقول: فلان قام بالأمر، وقام بالدعوة، وقام بأمر الله **{الْقَائِمُ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ}**^(٤) ليس معناه الواقف حقيقة على قدميه.

^٤ - أخرجه البخاري في كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة، والاستهام فيه (٣/ ١٣٩ - ٢٤٩٣).

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))^(٥) وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-^(٦).

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

الجنسية علة الضم المقصود به: أن التجانس والتشاكل هو علة للاجتماع والتآلف، فإذا رأيت اثنين بينهما تآلف فهذا يعني أنه يوجد أمر مشترك، وحتى إنه يذكر في هذا أن حمامة وغراباً وجدا معاً، فنظر فإذا بالحمامة فيها عرج، كما أن الغراب فيه عرج خلقة، الغراب إذا مشى على رجليه فيه عرج، فقيل: هذا هو الجامع المشترك.

وتجد الناس الذين يلتئمون على بعضهم يوجد بينهم شيء مشترك، إما اشتغال بصناعة، أو تجارة، أو نجوى، أو أنه يوجد بينهم قرابة، أو أنهم من أهل بلد معين؛ ولهذا سبق في الاقتضاء -اقتضاء الصراط المستقيم- كلام شيخ الإسلام: أن الواحد إذا خرج من بلده إلى مكان غريبة وسافر، فوجد أحداً من أهل بلده أنه يكون بينهم من المؤاخاة وقوة الصلة والمصافاة ما لا يقادر قدره، بينما هو في بلده حينما يراه ويرى أمثاله لربما لا يسلم عليه، فإذا رآه في مكان الغربة حصل له ميل إليه ومؤاخاة، فالجنسية علة الضم والتجانس.

٥ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجنّدة (٤/ ١٣٣-٣٣٣٦).

٦ - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجنّدة (٤/ ٢٠٣١-١٥٩) (٢٦٣٨).